حدودُ العقل في الفلسفة الفرنسية الحديثة

إلياس بلكا *

مُقدِّمة

يهدف هذا المقال إلى النظر في ما أنتجه التفكير الفرنسي الحديث في موضوع حدود المعرفة البشرية، وذلك من خلال عرض سريع لآراء أبرز أقطاب هذا الفكر في هذه القضية. وتعدُّ الفلسفة الأوروبية الحديثة فلسفة معرفة، بالدرجة الأولى، أي أن محورها الرئيس هو نظرية المعرفة؛ خلاف الفلسفة اليونانية، والقديمة على العموم، والتي كانت قضيتها الكبرى هي الوجود. ويرجع هذا التحول ـ ضمن أسباب أخرى ـ إلى علم الكلام الإسلامي الذي تسرب إلى الفكر الأوروبي في زمن ما قبل النهضة.

وتحتل مسألة طبيعة العقل وهل لعلمه وإدراكه حدود أم لا مكانة مهمة في الفلسفة الحديثة حتى كان هذا السؤال دافعاً لظهور عدد من فلسفات العقل، وصلت إلى أوجها بظهور الكانطية ثم الوضعية.

* أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، ظهر المهراز، المغرب.

مونتيني وبداية النهضة

أعجب المفكرون الإنسانيون - في عصر النهضة الأوروبية - بالارتيابية الإغريقية، ورأوا فيها درساً للعقل ودعماً للدين[1]. فكتب أكريبا سنة ١٥٢٧م: "حول قصور ولا جدوى العلوم والفنون"، كما لخص سانشيز مذهب الارتياب في كتاب له سنة ١٥٨١م.[2]

يعد الفرنسي مونتيني - من أهل القرن السادس عشر - أهم مفكري النهضة الذين تأثروا بالشكية القديمة، وكان دوره حاسماً في بعثها ونشرها. وخص أطول فصول كتابه "مقالات" Essais لمذهب بيرون شارحاً ومادحاً.[3]

وقد تعاونت أسباب متعددة على جعل مونتيني شكاكاً ممتازاً. من ذلك أنه كان شاهداً - في عصره - على سقوط كثير من النظريات التي تهم الفيزياء والجغرافيا، فقد انهارت الأفكار الفلكية القديمة، وعوض نظام كوبيرنيكوس تصور بطليموس للسماء؛ كما أن اكتشاف الأراضي الجديدة بأمريكا بيَّن كم كانت الاعتقادات الجغرافية للناس خاطئة. لقد كان من غير المحتمل أن يظهر - بعد ألف سنة — علم فلك آخر، وتكتشف أراضي أخرى[4]. كذلك لاحظ مونتيني أن التجارب هي أساس الفكر ومصدره، وتنوعها العظيم يجعلنا أمام عقول كثيرة لا عقل نمطي واحد.[5]

ولذلك كان يقول إنه من الخطأ أن نتعامل بجدية كبرى مع الفلسفات القديمة التي وضعها أفلاطون وأرسطو وأبيقور ونحوهم. فكثير مما قالوه هو مجرد افتراضات، وهم لم يدعوا لأنفسهم هذه السلطة التي نتصورها لهم.[6]

لقد كان مونتيني "سيء" الظن بالعقل، واعتبر أن أصل أكثر الآراء الموغلة في الخطأ هو الاعتداد الزائد به وبأحكامه. ولذلك يقول: "كيف أثق في هؤلاء الناس الذين يحدثونني عن علة حركة الفلك الثامن، بينما هم عاجزون عن فهم أقرب الأشياء

---

[1] Verdan, **Le scepticisme philosophique** (Paris: Bordas,1947) p.74..

[2] Emile Bréhier, **Histoire de la philosophie** (Tunis: Céres éditions, 1994) 3/296-301..

[3] Le scepticisme philosophique , p75-76.Article : ((scepticisme)), in: Encyclopaedia Universalis, 20/678 ,

[4] **Histoire de la philosophie**, 3/298.

[5] Essais, chapitre, **de la présomption**, p : 146 .Collection, **Grands écrivains**. Sarthe, 1986.

[6] Le scepticisme philosophique ; p 80.

إليهم: أي نفوسهم"[٧]. ويتساءل مونتيني: "كيف يحاول الإنسان أن يخضع موضوع الألوهية لعقله هو، بينما الله تعالى هو الذي خلق كل شيء، بما في ذلك هذا العقل وأسلوبه في العمل؟"[٨].

ولهذا اختار مونتيني طريقاً معاكساً لأغلب الفلاسفة قبله، فإذا كان هؤلاء يفضلون التحليق بخيالهم في عوالم بعيدة، وربما كانت موهومة، فإنه اختار أن يتجه إلى ذاته، ويدرس دواخل نفسه، فهو نفسه موضوع كتابه "مقالات" - أو رسائل ــ كما شرح ذلك في التنبيه الذي صدَّره به.[٩]

في هذا الكتاب الممتع كشف مونتيني عن شكه المتكرر وتردده الدائم وعدم استقراره على رأي أو موقف، فهو لا يستطيع أن يحسم شيئاً، خاصة في الشؤون البشرية، إذ لكل طرف - أو جانب - أدلته وحججه.

ولذلك كثيراً ما يدع الظروف - أو محض الاتفاق ــ تقوم بالاختيار نيابة عنه، ويستشهد في ذلك بقوله تِرِنْتُيُوس: حين يكون العقل في حالة ارتياب، فإن أخف شيء يرجح الميزان[١٠]. وكان يسعده أن يوجد دائماً من يحمل عنه همَّ الاختيار بين الآراء المتناقضة، فراحته تكمن في الاتباع لا الإبداع.[١١]

لقد استفاد مونتيني من نقد الارتيابيين للحواس، واعتبر أن العقل ليس أجدر بالثقة منها، فنتائجه متناقضة في أحيان كثيرة، وكل مقدمة أو دليل عقلي ينبني على آخر... إلى ما لا نهاية. ثم إن أحكامنا على الأشياء وتقييماتنا لها نسبية، فلذلك كان تحقيق الموضوعية صعباً جداً... فهذا - ونحوه - سبق أن نبه عليه الارتيابيون، كإنزديموس وكارنيادس وأركسيلاوس.. وخاصة سيكستوس، لكن مونتيني أضاف بعض الأشياء إلى أدلة هذا الفيلسوف الأخير. فقد لاحظ مثلاً أن بعض الحيوانات لا تملك بعض الحواس كالرؤية أو السمع، ومع ذلك هي لا تشعر بأنها محرومة منها.

---

7 Essais ; p 120 – 121.

8 Le scepticisme philosophique ; p 81.

9 Essais, Au lecteur, p 7.

10 Essais, p 121, 145. وTérence شاعر لاتيني.

11 Essais, p 146.

تُرى - يتساءل مونتيني - لماذا لا يكون الإنسان بدوره محروماً من حاسة ما خاصة بإدراك أشياء لا يدركها الآن، غير أنه لا يشعر بفقد هذه الحاسة؟١٢

ما العمل إذاً؟

إن الإنسان - بالنسبة إلى مونتيني - عاجز لوحده عن معرفة حقيقة القضايا الكبرى، كخلود الروح مثلاً، وليس له من سبيل إلى معرفتها إلا بالإيمان والعودة إلى الله. لم يكن مونتيني رجل دين، ولا مهتما بالأديان ومشكلاتها... بل كان فيلسوفاً ارتيابياً قرأ للقدماء ودرس ثورات عصره وتأمل في نفسه... كل ذلك أفقده الثقة في قدرة العقل على إدراك المطلق... فاحتضنه الإيمان، في هدوء واعتدال وبساطة. لأن روح الشكية تعلم التواضع وتجنب صاحبها الغرور العقلي. لهذا قليلاً ما يتحول الشكي إلى مؤمن متحمس يفور حماساً وحركة، بل إلى مؤمن هادئ تعلوه آثار الاستسلام والقبول كمونتيني.

ديكارت، والانطلاق من الشك

أما ديكارت فقد تبيَّن كم هي كثيرة الآراء البشرية الخاطئة، وكيف أنه لا يمكننا أن نثق في الحواس الداخلية والخارجية في كل ما تترجمه لنا من مواضيع الوجود. واهتم ديكارت - خصوصاً - بحالة اشتباه المنام باليقظة، وتساءل لماذا لا يكون ما حولنا مجرد خيال كخيالات الأحلام١٣. فقرر أن يراجع كل معلوماته ويبدأ من الشك. ولم يستثن شيئاً، فالرياضيات نفسها يمكن أن يصيبها الفساد، على الرغم من أنها أبعد شيء عن الشك، بحسب الظاهر.١٤

ولإحكام دائرة الشك وضع ديكارت احتمال أن الخالق وضعنا في عالم وهمي لا حقيقة له، ولا وجود فيه لأرض ولا سماء، حتى أجسادنا لا توجد في الواقع، بل كل شيء وضعه هذا الخالق في أوهامنا، حتى اعتقدنا فعلاً في تطابق أذهاننا مع الوجود من حولنا١٥. وقد بحث ديكارت عن نقطة يقين واحدة - مهما كانت ضعيفة - ينطلق منها لاختبار الوجود، فبدأ بدراسة جسمه وتحديد مكوناته، فوجد أنه لا يمكنه

---

12 Le scepticisme philosophique p 78 .

وقارن هذا بكلام الغزالي عن قصور الحواس في كتابه المنقذ من الضلال.

١٣ قارن هذا بما كتبه الغزالي حول المنام وأنه طور وراء العقل ودليل عليه في كتابه: المنقذ من الضلال، ومثل هذه الأشباه هي التي أوحت للباحثين بالمقارنة بين الغزالي وديكارت، كالأستاذ حمدي زقزوق في كتابه: منهج الشك بين الغزالي وديكارت.

١٤ هذا النقد الديكارتي للحس يشبه النقد الارتيابي القديم.

15 Méditations métaphysiques, 1ére méditation, p 39, 45 – 46.

الاعتماد عليه، لأنه يجوز ألاّ تكون للّمس والحركة أي حقيقة. لكن -يقول ديكارت- ألا يعتبر وجودي أنا يقينيا؛ وهذه القوة المفترضة التي تريد أن أعيش في عالم وهمي، ألا تفعل ذلك معي أنا، فأنا إذاً موجود.

والذي يوجد مني هو الفكر، فأنا شيء يفكر، فأنا إذاً موجود، وكوني أفكر هو اليقين الأول الذي ينبني عليه ما بعده. إن العقل يمكن أن يشك في وجود الأشياء، لكن لا يمكنه أن يشك في وجوده هو.[16]

ثم يقول ديكارت: وهذا التفكير ينتهي بي أيضاً إلى وجود شيء له كل صفات الكمال والجلال، وهو الله سبحانه، ومن المحال أن يكون من صفات الله: المكر والخديعة فهو -ا في كماله المطلق- يتنزه عن ذلك بهذا أُدرك أن الله حين رزقني هذه القوة المفكرة لم يهب لي شيئاً يوقعني في الخطأ، أو يوهمني وجود ما لا حقيقة له[17]. لقد كان اكتشاف العقل لنفسه هو الأساس الذي انطلق منه ديكارت لإثبات العالم، ولهذا لا غرابة أن تكون له - في فلسفته كلها - الكلمة العليا والأخيرة. ولا يعني هذا أن الحواس غير جديرة بالثقة، فصوابها أكثر من خطئها، لكن المقصود أن العقل هو الضابط لما تراه الحواس والمميز بين الصواب والخطأ فيها. يقول ديكارت: حين أطل من النافذة وأرى - من عل - أناساً في الشارع، أقول إنهم بشر، في حين أنني لم أشاهد غير القبعات والثياب، من الذي يؤكد لي أنهم ليسوا أناساً آليين - أي مجرد آلات - ؟ إنه العقل لا الحس، فملكة الحكم هي التي تعينني على فهم ما تراه العين[18].فكأن الذي يبصر ويرى - عند ديكارت - هو العقل، حتى لو تعلق الأمر بالأجسام المتحيزة، ولذلك فهو أقدر على الرؤية داخل نفسه أيضاً.[19]

وقد عدَّ ديكارت أن ملكة الحكم والفهم - التي رزقنا بها الله تعالى - لا تخطئ، إذا استعملت بمنهج صحيح. لكن ليس للإنسان مثل الكمال الإلهي في الصفات، فهو يخطئ، وليست ملكته العقلية في أقصى درجات الكمال ثم لا يلبث ديكارت أن يجعل من الإرادة البشرية المصدر الأكبر للخطأ، فإذا كان الإنسان عبارة عن عقل

---

16 **Méditations métaphysiques,** 1[ére] méditation, p 49 à 59. et 2 ème méditation.

17 **Méditations métaphysiques,** 4 [ème] méditation, p 145.

18 **Méditations métaphysiques,** 1[ére] méditation, p 75. et 6 ème méditation, p 255, 257.

19 **Méditations métaphysiques,** 2 [ème] méditation, p 81.

وإرادة، فإن مجال هذه أوسع، وهي بطبيعتها متقلبة ومتفلتة[٢٠]، أما العقل - إذا أحسن استخدامه - فإنه ينتج المعرفة بشكل آلي تقريباً.[٢١]

الفرق بين الارتيابية والشك الديكارتي

وعلى الرغم من أن الديكارتية تنطلق من الشك وتبدأ به إلا أنها – في العمق – تختلف اختلافاً جوهرياً عن الشكية القديمة. وذلك من وجهين أساسيين:

الأول: إن الشك - عند الارتيابيين - لا يشمل روح الإنسان وجميع قدراته، ونادراً ما وضع هؤلاء العالم الخارجي نفسه موضع الشك، بل إن ديكارت هو من فعل ذلك لاحقاً، فكان الشك عنده شاملاً. لذا فإن الارتيابي يجد سعادته في هدوء الشك ووقف الحكم.[٢٢]

الثاني: الشك اليوناني القديم هو موقف نهائي من المعرفة، إذ من طبيعة العقل نفسه عجزه عن الإدراك. أما الشك الديكارتي فلم يكن توقفاً أملاه الوعي بحدود العقل وقصوره عن بلوغ الحقائق، بل كان مرحلة تهدف إلى تصفية العقل من الأوهام والأخطاء وتوجيهه الوجهة الصواب. فللارتياب هنا دور محدد يتمثل في تحريرنا من المواقف المسبقة، وفصل العقل عن الحواس. ولذلك كان هذا الشك شيئاً إيجابياً، حيث اعتبره ديكارت - في البداية - الشيء الوحيد الموجود يقيناً، وبهذا أصبح أساساً لما بعده من المعارف. هكذا ينتهي الشك — عند ديكارت — بإعادة الاعتبار للعقل، وربما بأكثر مما يستحقه فعلاً. ولكن هذا لم يمنعه من الاعتراف — في آخر كتابه: التأملات - بضعف الطبيعة البشرية وقصورها بصفة عامة.[٢٣]

هويي

أثارت فلسفة ديكارت ردوداً متضاربة، وكان منها آراء الفرنسي هويي. وبالرغم من أن اسم هُويِي (أو أوّي) غير معروف اليوم لأكثر المثقفين، كما أن كتبه لا تتداول إلا أنه يستحق أن تفرد له مكانة خاصة في تاريخ الشكية. وهذا بفضل كتابه الذي نشر سنة ١٧٢٣م: "بحث فلسفي حول ضعف العقل الإنساني". وقد استفاد هويي في هذا الموضوع من الشكيين القدماء، ومن آباء الكنيسة، ومن ديكارت وغيرهم. ثم أضاف إلى ذلك تفكيره الخاص.

---

[20] **Méditations métaphysiques,** 4 ème méditation, p 145, 149, 163, 165.

[21] Article ((Rationalisme)), in, **Encyclopaedia Universalis,** 19/541.

[22] Le scepticisme philosophique, p 45. Article : (scepticisme), 20/677.

[23] Méditations métaphysiques, p 259-261.

اعتبر هوبي أنه لا سبيل للعقل نحو إدراك كنه الأشياء، لأن تعريف أمر ما يكون بالجنس والنوع، والجنس نفسه يحتاج إلى تعريف، وهكذا يتسلسل البحث إلى غير نهاية. والقياس لا ينفع هنا، لأنه يدور في حلقة مفرغة. كما أن البداهة ليست معياراً للحقيقة، خلافاً لما يقوله ديكارت، لأنها لا تبدو كذلك لكل واحد. وحتى لو عرفنا حقيقة ما، لم نستفد من ذلك كبير فائدة، لأن الأشياء لا تثبت على حال، بل هي في تغير دائم. ثم إن كل الأشياء ترتبط فيما بينها في سلسلة لا تنتهي، من الأسباب والآثار، يستحيل أن نمسك بطرفيها. إن عجز الإنسان عن معرفة الحقيقة بيقين صفة ذاتية وأصيلة للنوع البشري، ولهذا انتهى فلاسفة كبار إلى الوقوف عند الشك.

لكن لا بأس في الحياة العملية بالاستناد على الآراء الراجحة أو التي تحتمل الصحة، ومن ثم كان العلم مشروعاً. إنما في موضوع الألوهية، لا يمكن أن يكتفي الإنسان بالظنون والاحتمالات، فهو بحاجة إلى اليقين، وهذا لا سبيل إليه - في هذه القضية أو نحوها - إلا في الإيمان. ولهذا لا يجب أن تكون الغاية الأسمى للارتيابية هي الوصول إلى هذه الطمأنينة السلبية التي قال بها بيرون وأتباعه، بل هي إعداد العقل لتلقي الإيمان والاعتقاد، بعد أن تنزع منه ثقته الزائدة في نفسه.[٢٤]

باسكال، أو المعرفة القلبية

رفض باسكال فلسفة عصريّه ديكارت، واعتبره حائراً عديم الجدوى[٢٥]. فلم يكن باسكال يطمئن إلى دعوى العقل الاستقلال بالمعرفة، فكان أقرب إلى الارتيابيين ومونتيني منه إلى ديكارت[٢٦]. وقد كان باسكال يكره ادعاء الإحاطة بمبادئ أولى تفسر كل شيء، إذ العالم معقد في تركيبه، ولا يمكن معرفة جزء منه دون استحضار سائر الأجزاء. ولا يمكن التعويل على العادات، لأنها تختلف من عصر لعصر ومن شعب لشعب.
أما الطبيعة فهي أيضاً قد تكون عادة، أو أول عادة.[٢٧]

إن آخر مدارج العقل في الترقي هي أنه يعترف بوجود عدد لا نهائي من الأمور الطبيعية التي تتجاوزه، فكيف بشؤون ما وراء الطبيعة؟. لذلك اعتبر باسكال أن

---

٢٤ لما كان كتاب هوبي مفقوداً في كثير من المكتبات لعمومية، ناهيك عن الخاصة والتجارية، فقد اعتمدت على ملخص "فيردان" له في:
Le scepticisme philosophique, p 98-102.

25 Blaise Pascal : Pensées, n° 78, p 45. Collection : Grands écrivains. Sarthe, 1986.

26 Histoire de la philosophie, 4/159.

27 Histoire de la philosophie, 4/159 – 160.

البيرونية - فلسفة بيرون - على صواب، وأن الناس - قبل المسيح - لم يكونوا على علم بشيء ولا يقين من شيء، بل كانت آراؤهم مجرد تحكمات واختيارات عشوائية.[28]

إن العقل عند باسكال عاجز عن الإجابة عن الأسئلة الكبرى التي تخص وجود الإنسان. ولا ينفع العقل حتى في موضوع الألوهية، بل يخطئ من يود إقناع الناس بوجود الله سبحانه عن طريق التأمل في الطبيعة والكون ومظاهر النظام والإبداع فيهما، فهذا الطريق لا ينجح مع المنكرين، وبهذه الأدلة "الضعيفة"[29]. فوجود الخالق أو عدمه، ووجود الروح أو عدمها، وكون العالم مخلوقاً أو لا... كل هذا لا يفهمه العقل المحض، فهذه الاحتمالات متساوية عنده[30]. إن باسكال يرفض الاستدلال العقلي على قضايا الإيمان[31]. وقد اشتهرت عن باسكال مقولته: للقلب معاذيره التي لا يحيط بها العقل[32]. فالقلب هو من يشعر بالله تعالى لا العقل، وهذا هو الإيمان، أن تجد الخالق بقلبك لا عقلك.[33]

لكن إذا كان باسكال يجعل من الوحي الإلهي المصدر الوحيد لمعرفة مصير الإنسان وغاية وجوده، فإنه في غير هذا من الأسئلة يحيل على العلم والتجربة[34]، وقد كان هو نفسه رياضياً وفيزيائياً ممتازاً. وهذا السؤال عن طبيعة العقل وحدوده استمر تداوله إلى القرن اللاحق - الثامن عشر -، وإن بشكل مختلف، وكان ذلك على يد التنويريين.

فلاسفة الأنوار

ورث الجدل الفلسفي في القرن الثامن عشر مشكلة الرؤية أو الإحساس بالعالم الخارجي عن القرن السابق، حيث اهتمت فلسفات ديكارت وبركلي وهيوم،

---

28 Pensées, n° 432, p 186 – 187.

29 Pensées, n° 242, p 117 – 116.

30 Pensées, n° 230, p : 108.

31 Pensées, n° 242, p : 118.

32 Pensées, n° 277, p : 129.

والقولة في أصلها الفرنسي جميلة، ولا يمكن ترجمة جمالها بدقة، لأن كلمة Raison الأولى تعني السبب، والثانية تعني العقل أو القوة المفكرة:

Le cœur a ses raisons que la raison ne connaît pas.

33 Pensées, n° 278, p : 129.

34 Le scepticisme philosophique, p : 96 – 97.

ونحوهم بهذه المشكلة[35]. وقد اهتم فلاسفة الأنوار بهذا الموضوع، وبقضية أصل المعرفة بصفة عامة، لكن ضمن إطار يقصي الميتافيزيقيا من دائرة بحثه. ولذلك تعتبر فلسفة الأنوار ـ من الناحية النظرية ـ فلسفة معرفة.[36]

لكن موقف التنويريين الفرنسيين من العقل وقدراته وحدوده موقف مزدوج، بل ربما كان متناقضاً. فقد استعان هؤلاء بالارتيابية القديمة ورددوا حججها ونظراتها، وذلك ضمن صراعهم مع الفلسفات الميتافيزيقية التقليدية، بما فيها الأنساق الكبرى للقرن السابع عشر، فبينوا بدورهم عجز العقل عن فهم كثير من أسرار الوجود.، منها ـ عند فولتير ـ طبيعة الروح، ومكونات المادة، و ـ عند ديدرو ـ مشكلة الحرية والقدر ونحو ذلك. لكن التنويريين في قضايا أخرى، فكرية، واجتماعية، وأخلاقية، وسياسية يثقون في العقل ثقة تامة، فيعلون من شأنه ويرفعونه إلى رتبة المطلق. وهم يستخدمون هذا العقل سلاحاً ضد المعتقدات الدينية ـ أو بعضها ـ التي يعتبرونها خرافة وطيرة، وهذا يخالف الارتيابية المعروفة، فهذه الأخيرة لا تنفي الدين، كما لا تثبته.[37]

إذاً، فالعقل بين يدي فلاسفة الأنوار عقلان: عقل محدود إذا تعلق الأمر بالفلسفات الميتافيزيقية، وآخر مطلق حين يتعلق الخلاف بالكنيسة وما تدين به.

وبالنسبة لفولتير، تعد روايته الفلسفية "الساذج" خير ما يكشف عن إحساسه بأزمة العقل تجاه كثير من أسئلة الحياة. لقد أراد هذا المفكر أن يتهكم بنظرية الألماني ليبنتز بأن عالمنا أفضل العوالم الممكنة، فتخيل قصة الخادم الساذج الذي يعتقد بأن كل شيء يسير على ما يرام، لكن أحداث الحياة وتقلباتها التي لا تنتهي ما لبثت أن رمت به بائساً في استانبول، حيث ذهب يسأل درويشاً تركياً عن أصل الشر، فأوصاه بالصمت، ونصحه بأن يعمل ويعمل دون أن يفكر فهذا وحده ما يجعل الحياة محتملة. بهذا تنتهي الرواية[38]. إن فولتير في روايته هذه ربما كان من غير قصد منه قد سخر من العقل وضعفه أكثر مما سخر من فلسفة ليبنتز.

---

35 Article: (Scepticisme), 20/678.

36 Article: (Philosophie des Lumières), 14/75. in: **Encyclopaedia Universalis**.

37 Le scepticisme philosophique, p 104, 129 à 133.

38 Voltaire : Candide, ou l'optimisme

أما ديدرو فقد تخيل حواراً مطولاً بين الخادم جاك، الجبري والذي لا يبالي بشيء، والمؤمن بأن قدراً غامضاً يهيمن على الكون وبين سيده الذي يعتقد أنه يتحكم جيداً في مصيره. وتتخلل هذا الحوار أحداث كثيرة وحكايات صغيرة، لكنه بالأساس حوار فلسفي في قالب قصصي مبسط.

ويشد انتباه القارئ في هذه "الرواية" شدة اضطراب ديدرو تجاه مشكلة الحرية والعلّية، ونحوها من قضايا الوجود الإنساني. فهو واع بتعقدها وغير قادر على حلها، ولذلك كانت الرواية اعترافاً فعلياً بقصور العقل في مواجهته لإشكالات فوق طاقته. وبهذا لا تختلف نهاية رواية "جاك الجبري" عن نهاية "الساذج".[٣٩]

خاتمة

هؤلاء الفلاسفة هم أهم من تعرض لقضية حدود العقل البشري في تاريخ الفلسفة الفرنسية الحديثة، وضمن هذه الفترة التي دامت نحو ثلاثة قرون. وقد كان لهذا التفكير أثره في ظهورالمدرسة الوضعية، بالخصوص. والحقيقة أن هذه الوضعية ــ التي أسسها الفرنسي أوجست كونت ـ هي في العمق موقف جوهري يعترف بقصور العقل وبعجزه عن إدراك الحقائق وأسرار الوجود، لذلك توجه الوضعية هذا العقل فقط إلى اكتشاف العلاقات الظاهرية بين الأشياء، متجاوزة السؤال عن كنهها. وهنا تكمن قوة الاعتقادات الدينية وغيرها، أعني في الإجابة عن الأسئلة الوجودية الكبرى.

---

39 Denis Diderot : Jacques le fataliste

والجدير بالذكر أن هذين العملين ـلكل من فولتير وديدروـ يندرجان ضمن ما يطلق عليه النقاد: الرواية أو القصة الفلسفية. وهذا النوع من التأليف أقدر أحياناً على بسط الموقف الحقيقي والعميق للكاتب من التأليف الفلسفي الخالص أو المباشر.